الخبرة في سياق تعلم (قصة معلمة)

نانسي رياحي

البذرة التي نمت في داخلي منذ طفولتي، حين كان عمري عشر سنوات، بدأت تزهر بأن أكون معلمة علوم، اقتداء بمعلمي مالك الريماوي، الذي درّسني في صفوف عدة، ومنه تعلمت، وبسببه قررت أن أكون معلمة.

تحقق الحلم عندما اتصلت بي مديرية التربية والتعليم وأخبرتني أنه تم تعييني، فعندما ذهبت لمعرفة مكان المدرسة، تحول الحلم إلى كابوس، حين سمعت اسم مدرسة جمالة الثانوية المختلطة، وهي مدرسة بعيدة جداً ونائية، فيها طلاب شرسون بمعنى الكلمة، كانوا لا يحترمون المعلم، متأثرين بالوضع الفلسطيني العام وما يواجهه من عنف من قبل الاحتلال الإسرائيلي.

كانت مرحلة صعبة جداً، فالطلاب ضربوا المعلمة السابقة، وجرحوها بالة حادة (شفرة) في يدها أثناء الحصة، حيث كانت تخرج من الحصة وهي تبكي، ما جعل الطلاب يستضعفونها ويتطاولون عليها، كما ضربوا معلماً آخر في الفترة نفسها. كنت عندما أرى شفرة مبراة في يد طالب أرتعب خوفاً وآخذها منه. كانت الحصة تمر وأنا على أعصابي، أخاف أن أُضرَب أو أبكي أمام الطلبة أو أنهار، وبخاصة عندما أسمع طالباً في الصف السابع يقول لي بنظرة حاقدة: «بفرجيها لما تروح».

يذهب ثلثا الحصة وأنا أقول للطلبة: «اسكتوا .. اهدؤوا»، ومرات أضطر أقول ألفاظاً جارحة حتى يتأثروا مثل «اخرسوا»، وأضربهم مرات كثيرة بسبب مشاغبتهم وسوء تصرفاتهم في الحصة، ولكن ما كان يواسيني أن المعلمات اللواتي كن يدرّسن معي يتعرضن للظروف نفسها، والمدير يساعدنا ويهون علينا ويعاقبهم.

وبعد أن ينتهي الدوام يأتي كابوس آخر؛ الوقوف على الشارع القريب من مستوطنة «حلميش» لانتظار سيارة خاصة أو عامة حتى أعود إلى المنزل، وأثناء الانتظار تعرضت مرات عدة للمساءلة من الجيش الإسرائيلي، عن سبب انتظاري في هذا المكان، وما هي وظيفتي؟ وعن الأوراق التي أحملها؟ أحياناً بطريقة استهزاء يسألون، وكانت علامات الخوف تظهر على وجهي، ويبدأ صوتي بالارتجاف، تمتلئ عيني بالدموع، وكنت أتمنى في هذه اللحظة قدوم سيارة عربية ليروني ويخرجوني من هذا الموقف.

في أغلب الأوقات، كان زوجي يتوقع اتصالاً من المدرسة، بأن هناك مشكلة كبيرة حدثت معي مع أحد الطلاب. عانيت عاماً دراسيا كاملاً، وعلى الرغم من خوفي وقلق العائلة، فإنهم كانوا يشجعونني

في ظل الظروف القاسية التي نعيشها، كان يجب أن أتمسك بهذه الوظيفة التي حصلت عليها بعد التقدم لامتحان الوزارة مرات عدة، وانتظار دوري في التوظيف مدة سنتين، فلا أستطيع الاستنكاف لأنه يوجد المئات من المعلمين ينتظرون هذه الوظيفة بالظروف نفسها.

طالبت بنقلي من المدرسة، حين سمعت بوجود شاغر في مدرسة بنات رنتيس الثانوية، وانتظرت حتى أول العام الدراسي الجديد ليبعثوا خبر انتقالي، فتوجهت إلى المدير وسألته: هل وافق على النقل؟ وأجاب مبتسماً: «لم أوصِ بنقلك» فانزعجت كثيراً واتصلت بقريبة لي تعمل بالقرب من المدَيرية في محاولة لتسهيل إجراءات النقل، فأعطت اسمي لشخص مسؤول يعمل في لجنة التنقلات. انتظرت أياماً، ولم أستطع الصبر، فذهبت بنفسي لمقابلة مدير التربية والتعليم وأخبرته عن سبب رغبتي في الانتقال. في أول يومين لم أذهب إلى المدرسة، وفي اليوم الثالث دخلت إلى اللجنة المسؤولة عن التنقلات وخلال ثوانٍ تم نقلي.

واكتمل الحلم حين انتقلت إلى مدرستي التي درست فيها، والتقيت ببعض المدرسات اللواتي قمن بتدريسي وأنا طالبة، وأكن لكل من علمني وعلمتني كل الاحترام و التقدير.

أصبحت أدرك مهمة المعلم الذي يحمل رسالة مقدسة، فكنت أحسب أن المعلم هو الذي يصحح الامتحان ويعاقب الطلاب فقط دون مشقة أو تعب، ولكن تغيرت هذه الفكرة عندما مارست هذه المهنة الجميلة الشاقة التي تحتاج كثيراً من الوقت والجهد والتحضير والبحث، والتي حولتني من مستقبل عندما كنت طالبة استقبل المعلومات ممن علموني إلى مرسل، أرسل المعلومات إلى طلابي، حيث شعرت بالانتماء إلى المجتمع والوطن والقيم والعادات والتقاليد. فالمعلم يقع على عاتقه إنشاء أجيال متعلمة، تعرف حقوقها وواجباتها تجاه المجتمع، ولكن أرى طالب اليوم ليس كطالب الأمس، فطالب اليوم يجد كل ما يحتاج إليه بسهولة من إنترنت ومراجع وكتب متوفرة في المكتبة، لكنه منشغل في الفضائيات والهواتف النقالة، بينما طالب الأمس كان متفرغاً أكثر للدراسة ويسعى جاهداً للحصول على المعلومة.

ومن الممكن إعادة تفعيل دور الطالب عبر إشراكه في الحصة، وإعطاء مساحة له في المادة المشروحة، وإشراكه في النشاطات المدرسية؛ كالاحتفالات ومسابقات وزارة التربية والتعليم.

أن تجد عليك مراقباً (كالموجه والمدير) لما تفعله داخل الحصة، يجعلك تشعر بالخوف، وذلك لأنك تدرك أن لديهم خبرة تفوق خبرتك، وأن لهم منظورهم الخاص الذي يقيسون به أداء المعلم، وعندما يحضرون الحصة أشعر بالرهبة في بدايتها، ومن ثم أنسى وجودهم في الحصة، وهم يكتبون ملاحظاتهم وانتقاداتهم وإيجابيات الحصة وسلبياتها.

انتظر بفارغ الصبر، انتهاء الحصة حتى استمع إلى ملاحظاتهم. صحيح أن المعلم يحب المديح دائماً، ولكن لا يوجد إنسان مثالي، وكذلك المعلم. وبعد انتهاء الحصة أحضر دفتر العلامات، ودفتر التحضير، وأوراق العمل، ونماذج الأسئلة، وأجلس مع المديرة والموجه في غرفتها؛ لمناقشة ما تمت كتابته من ملاحظات وانتقادات. في تلك الفترة، أكون مرتبكاً وأعصابي متوترة؛ لأن كل العام يعتمد على تقييمي في هذه الحصة، ويبدأ النقاش بالملاحظات الإيجابية للحصة وأسلوب التدريس، فأشعر بالارتياح والاطمئنان، ومن ثم مناقشة الجوانب السلبية في الحصة. وعلى الرغم من انزعاجي من هذه الانتقادات، فإنها تقومني وتجعلني أفضل. فمثلاً، كانت طبيعة أسئلتي قديما تعتمد على الحفظ والتذكر، والآن، وبعد إرشادهم وتوجيههم لي، أصبحت أسئلتي متنوعة تعتمد على الفهم والاستنتاج.

فطوبى لكل معلم يحب مهنته، فيبدع فيها، لأنه هو الذي يمهد الطريق أمام المهندس، والطبيب، والنجار، والفلاح، والعامل، فهو الذي يبني الأمة بتربية الأجيال، فكل الاحترام للمعلم، وأنصحه بأن يجعل الطالب محباً لمادته من خلال حبه له. فالحديث مع الطالبات في الاستراحة، وأثناء الحصة، والاستماع لأرائهن، وتوجيه النصائح لهن في حصص الفراغ، يجعلني أقرب إليهن وهن قريبات مني، فكم جميل أن ألتقي بطالبات قمت بتدريسهن، أو لم أقم، وألمس في لقائهن الود والاحترام.

نانسي رياحي
مدرسة بنات رنتيس الثانوية – رام الله

من ورشة عمل حول «توظيف الرسوم المتحركة في التعليم».